وَنزعْنَا

د. عبد الله بلقاسم

(ونزعنا)... الحقيقة التي يستيقن بها من تدبر القرآن: كثافة المعاني في آياته، وازدحام ألفاظه بالأنوار والعلوم والعبر. والوقوف المجرد العفوي والتأمل العابر -فضلا عن إمعان النظر- تكشف بريق الكنوز المكتظة والمقبلة بأضوائها على العقل والروح، كأنما تقف أمام طباق من الجوهر الشفاف كل طبقة منه تستلب العيون ولا تحجز الرؤية عما وراءها، كلما أمعن الناظر زاد بريق ما يرى، ولاح له من ورائها لوح جوهر جديد؛ كأنما أنت أمام شلال ينسكب على الروح، مرة بعدة مرة، بلا انقطاع.

في مرات كثيرة -عند آية أو بعض آية- يصيبك الدهش ويطبق عليك الصمت، تود لو سكت العالم ليصغي ، وتود لو قلت لكل شيء فيك : صه! تفقد الرغبة في الكتابة والتعبير والنقل، تشعر بالضآلة حين تفكر بقدرتك على نقل ما ترى، أو التعبير عنه.

هل شعرت يوما أن آلة التصوير عاجزة عن حبس مشهد الجمال في صورة تريد أن ترسلها لمن تحب؟ هل حاولت أن تلتقط الصورة، ثم نظرت إليها فإذا هي باهتة مخادعة، قد ظلمت المشهد الجميل، فوددت لو حملت من تحب إلى ذات المكان واللحظة، دون أن تنبس بشفة ولا تنطق بحرف، تضعه بعينيه وروحه أمام البهاء والجمال كفاحا بلا ترجمان! مع ذلك نحبس الصور وننقلها ونرسلها، لا لأجل نقل الجمال بل لبعث الأشواق للسفر إلى حيث هو.

قرأت ذات مرة قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَـٰرُ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف:٤٣)، فاستوقفني قوله عز وجل: (ونزعنا)... التي تكرر الامتنان بها على أهل الجنة في القرآن مرتين، هنا في سورة الأعراف، وفي سورة الحجر ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾ (الحجر:٤٧).

(ونزعنا)... اختصرت هذه اللفظة قصة الضغائن في تاريخ الإنسان، عبّرت عن تشبث الصراع بروحه والتصاقها بأفكاره وهواجسه، كشفت حجم اعتناقها له، حتى تحتاج إلى قلع (وهو معنى النزع) لإخراجها، القلع والنزع الذي يشي بأن المنزوع ذاهب بعيد في أعماق شيء ما.

(ونزعنا)... تكشف تشابك العلاقة بين الصدور والضغائن واجتذاب كل منهما للآخر، واعتناقه له، إذ القلع والنزع يكون من شيء غائر في شيء ملتف به، وهي تبين حجم مسؤوليتنا عن الضغينة والإمساك بها والاحتفاظ بذكرياتها وبواعثها، وغرس جذورها بعيدا في أعماقنا، كيف أننا نظل حتى آخر

رمق نرفض التخلي عنها، نشعر أنها جزء من كينونتنا، نقل الطبري في تفسيره عن أبي أمامة في تفسير الآية قال: «لا يدخل مؤمن الجنة حتى ينزع الله ما في صدورهم من غل، حتى ينزع منه مثل السبع الضاري.

(ونزعنا)... تشرح حجم ما ينبغي أن نفعله تجاه خواطر الضغينة في حياتنا، ومقدار الكفاح الذي تتطلبه نفوسنا للسلامة منه، إذ القلع فيه معاناة الانفصال التام، والتنصل الكلي، والمفارقة الكاملة، وكل ذلك يحتاج إلى جهد وتضحية.

(ونزعنا)... وضعت الصدور عارية أمام حقيقتها، وعشقها الغريزي للعداء والصراع، وميلها الغريب للإبقاء على ملفات الخصوم، وذاكرتها الحديدية لإساءات الآخرين أو أوهام إساءتهم.

(ونزعنا)... بعد القيامة وأهوالها، وبعد الصراط، وقبيل العبور إلى دار الخلود، لا زالت الذاكرة مثخنة بالألم، غير قادرة على النسيان، غير ذاهلة مهما حف بها من الظروف عن شيء قابع فيها.

(ونزعنا)... تدل على مساحة العجز في الإنسان عن مقاومة هذه المشاعر، والخروج من أزماتها، والانعتاق من أصواتها الدائمة فيه، إلا بالاستغاثة بربه، وسؤاله الدائم بالنجاة والطهر ، فهؤلاء صفوة البشر لم يطيقوا الخروج منها حتى تفضل الله عليهم بنزعها منهم.

(ونزعنا)... تعبر عن واقعية هذا الدين، وتعاطيه من حقائق النفس البشرية بشفافية ووضوح، بلا مثالية زائفة، هؤلاء أهل الجنة أنفسهم، يحتاجون قبل أن يدخلوا إلى ديار الخلود، إلى (شيء شديد) لفصل هذه الأرواح عن ضغينتها وغلها، تخفف هذه اللفظة (ونزعنا) من تقريعنا لنفوسنا، وتخفف من سياط لومها، حين تثور فيها ذكريات البغض والكره أحيانا، وتذكرنا بورطة بشرية كاملة (إلا من رحم الله) في هذه المعركة، تجعلنا نتعامل مع نفوسنا العالقة مع الضغينة بروح راحمة، تحاول إخراجها من الوحل الذي انزلقت فيه، والتصقت بطينه.

(ونزعنا)... تخفض من مطالبنا من الآخرين، نمنحهم مساحة كافية عند تعاملنا معهم، نعطيهم فرصة لالتقاط أنفاسهم بعد براكين الغضب والسلبية تجاهنا، نتركهم وقتا كافيا لتخمد نيرانهم، لا نتوقع أن يتخلوا عن كل مشاعرهم السلبية تجاهنا، نعذرهم أنهم لا يطيقون ذلك، لا نطالب بعودة كل المياه إلى مجاريها، يكفي أن تعود أصوات المياه في الجداول.

(ونزعنا)... تشعرنا بخطورة مشاعر الإنسان، ومخاطر الجرأة على العبث بها، رُب كلمة لا تذهب حرارتها إلا عند باب الجنة، بعد آلاف السنين في الحياة والبرزخ والقيامة، علينا أن لا ندخل في صراع ما لم يكن ضروريا، يستحق حمل تلك الضغائن إلى أبواب الجنة، علينا عند الخلاف أن نتحلى بأقصى ما نطيق من أخلاقيات الكلمة والسلوك، وأن نفتش في معاجم لغاتنا عن الكلمة الطيبة، التي نعتقد أنها لا تنحت ألما في جدران من نختلف معهم.

(ونزعنا)... تبشرنا أن لا نفقد الأمل في أي علاقة فقدناها، أو أي أحبة غادروا حياتنا، فالله وعد المؤمنين بأن يستعيدوا كل علاقاتهم وأحبتهم في الجنة، وقد يمن الله بنزع هذه المشاعر قبل ذلك، فتتخلص النفوس من غلها برحمة الله تعالى وقدرته.

(ونزعنا)... في سياق الامتنان الأعظم على الإنسان، تدل على أن كل خصومة وضغينة تتجاوزها في حياتك هي في حقيقتها نعيم عاجل، وثروة هائلة، وجنة للروح، تستحق التضحيات، وكل خصومة تتجنبها أو تتخلص منها هي سعادة إضافية لحياتك.

(ونزعنا)... تخصيص مشاعر الغل بالذكر بالنزع قبل دخول الجنة أو عند دخولها، دون الخواطر والمشاعر الرديئة الأخرى، يدل على تنافي هذه المشاعر مع النعيم الخالد، والطهر الأبدي، والراحة السرمدية، وجمال المكان والسكان.

(ونزعنا)... ما في صدورهم، الجمع المضاف يدل على العموم، جميع الصدور، وهذا من جمال البيان، إذ بعض الضغائن على أهل الجنة تكون مبررة، ولها أسبابها الشرعية، لكن دخول الجنة يغلق كل قضايا الصراع، وهذا فيه طمأنة لأهل الحق الذين يضطرون للخصومة مع بعض المسلمين، أنه ستأتي اللحظة التي تتخلصون جميعا فيها من آثار ذلك،

(ونزعنا)... بدأ الامتنان بالنعيم في داخل الإنسان نفسه، قبل ذكر الأنهار والجنات، فالنعيم الحق يبدأ من الداخل، بل ليس هناك معنى لأي نعيم ما لم يكن الإنسان مستعدا له، قابلا، قادرا على التلذذ به، والغل من أعظم المشاعر تكديرا على نعم الحياة الأخرى، فهو شعور سلبي يضفي الكآبة على كل شيء حوله، ويغلف الحياة بالتعاسة.

(ونزعنا)... تقرر وسطية الشريعة ومطالبها المعتدلة من الإنسان المبتلى بالغرائز والأشواق، ونظرتها المتوازنة المعتمدة على معايير العدل والرحمة، فالغل حتى ولو كان مذموما، لكنه لا يشطب على فضائل الإنسان الأخرى، ولا يلغي أعماله الصالحة، فهؤلاء أهل الجنة قد أكرمهم الله بعبور الصراط وفتح لهم أبوابها، وقد جاءوا وفي الصدور ما فيها، لكن الإيمان وهو قول وعمل، يتبعض ويتجزأ، ولكل عمل وزنه النسبي في معايير العدل الإلهي، فالمؤمن وهو يتعثر في طريق، قادر على الإسراع في طريق أخرى، وحينما تغلبه طبيعته وجبلته في شأن، تسموا به الجبلة في شأن خير فيستعيد ما فاته هنا ، ويعوض ما خسره هنا، فالمؤمن العاقل يعيش بهذه الروح المستثمرة التي لا تقعده الهفوات عن الاستكثار من الطاعات.

(ونزعنا)... ضمير الجمع الدال على العظمة وكمال القدرة التي استخرجت هذه الغل من الروح، وطهرت النفس من الضغينة، مشهد النزع كأن شيئا محسوسا، استُلت منه هذه الأخلاط، وهذا من دلائل الربوبية إذ لا طوق للبشر باستلال المشاعر، وانتزاع الإرادات، وهذا التفرد الرباني بهذه القدرة، يحرك القلوب عند مضائق النفس ومتاعبها، وكربها، لسؤال ربها الذي بيده(وحده) تغيير هذه الإرادات والمشاعر، فكل الأسباب المادية لا تصنع فرحا، ولا تذهب حزنا، وإنما الذي يخلق ذلك في القلوب هو الله تعالى وحده، الذين يطلبون من الله إسعادهم يختصرون الطرق، ويعبرون المضائق.

(ونزعنا)... النزع فيه معنى القلع الذي يأتي على الشيء من جذوره، وفيه تمام المنة، بالخلاص التام، من الغل وأسبابه وذكرياته وآلامه، ونزعات الانتقام ورغبات التشفي، ففي الدنيا قد نعفو، ونتوقف عن الملاحقة والانتقام، ولكننا نحتفظ بذكرياتنا، نختزن آلامنا، نستعيد جراحنا، لكن النزع يقتلع كل ذلك.

(ونزعنا)... تقرير المنة بنزع الغل في ذلك المقام، وتخصيصها، دلالة على عظم البلوى بها، وانتشارها وفشوها، فالخلق متفاوتون في الطبائع والأخلاق والخبرات والأعمار واللغات والعادات والتجارب وما أودع الله فيهم من الطيب وضده، مع تأصل التنافس والطمع والشح، مما تعظم به أسباب التناحر والتباغض، فهذه منة عامة على أهل الجنة جميعا، إذ لا يكاد أحد إلا ويصيب من هذا لسبب ديني أو دنيوي، لأمر نبيل أو غيره، فنزع الغل أعظم من المنة بنزع أخلاق أخرى، كالشح، أو الغضب أو نحوهما.

(ونزعنا)... فيها معنى الألم، إذا تشير إلى القلع، فالذين يأتون بأحقاد كثيرة يواجهون معالجة النزع أكثر من غيرهم، والذين يجاهدون غلهم في الدنيا، ويحرصون على الحضور بأقل ما يمكنهم من ذلك يكون أيسر عليهم، هذا مع مقام الحياء من الله تعالى.

"ولكل عمل وزنه النسبي في معايير العدل الإلهي، فالمؤمن وهو يتعثر في طريق، قادر على الإسراع في طريق أخرى"